حاجي بابا أصفهاني

للكاتب الانجليزي جيمز موير

بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

(خمسة)

وكان السفير الإنكليزي قد وصل إلى طهران قبل وصولنا إليها ببضعة أيام واستقبل بأعظم ما يمكن أن يستقبل به كلب من كلاب النصارى لدى خليفة رسول الله . وأثار الاحتفال به ضجة في المدينة وصرح بعض كبار علمائنا بأننا قد ارتكبنا بعض الإثم باحتفالنا بكافر هذا الاحتفال العظيم وأننا سنعذب من أجل ذلك يوم الحساب عذاباً أليماً

وذبحت الذبائح من عجول وأبقار تحت حوافر خيل السفير الإنكليزي ، ونثرت الأزهار في كثير من الطرق، وسمح له بأن يدق رجاله الطبل يوم دخولهم المدينة ، وهذا لعمري فضل كبير لم ينله أحد غير أمراء إيران

ثم بدأت الضيافة كأحسن ما يمكن أن تكون فأعد خان كبير لنزول السفير ، وفرشت الأبسطة الثمينة ، وأخذنا من الجيران ما احتاج إليه الخان وألحقنا به حديقة بديعة . وأمر خازن المال الأعظم باطعام السفير ومن معه من بيت المال ما أرادوا الإقامة في المدينة وأرسلت الملابس والشيلان بعد أن جمعت من رجال الحكومة إلى السفير . وأعلن الشاه في جميع المدينة أن السفير ومعيته في ضيافة جلالته الخاصة فلم يكن، والحالة هذه، بد من ملاطفة هؤلاء الأغراب والاحتفاء بهم خشية غضب الشاه

ويمكن أن يقال إن كل هذه التعطفات كانت أكثر مما يجب للترحيب بهؤلاء الكفار وإكرامهم ومنحهم وسائل الراحة ولكن حين حل موعد الرسميات نشأت صعوبة مبهمة الأسباب دلت على جمود هؤلاء الضيوف وتنكرانهم للفضل ، وكان السفير أكثر خلق الله جموداً وعناداً، فأولاً عند ما مثل بين يدى الشاه أبى أن يجلس على الأرض وطلب كرسياً يجلس عليه فأحضر له كرسي وضع في مكان بعيد عن العرش . وثانى الأمور التي دلت على عناد السفير مسألة الحذاء فلم يقبل ذلك الكافر أن يخلع نعليه أو أن يلبس جواربنا الحمراء . وثالث الأمور أن السفير أبدى رغبته في رفع قبعته عن رأسه أثناء انحنائه أمام الشاه رغم محاولتنا إفهامه أنه ليس من الأدب أن يكشف رأسه . ثم نشأت عن اللباس مشكلة كبرى ، فقد كانت أعدت للسفير ورجاله ملابس يرتدونها تغطى جميع أجسامهم فيمكنهم بها أن يظهروا أمام الشاه بمظهر لائق ، وأعلن ذلك للسفير فأباه إباء شديداً وقال : إنه سيظهر أمام الشاه الفارسي بما تعود أن يظهر به أمام ملكه الإنكليزي من الثياب

ظهرت هذه المشكلة عسيرة الحل إذ لم يحدث أن أحد الفارسيين وجد يوماً في بلاط ملك من الملوك الأجانب ليعرف الملابس الواجب ارتداؤها أمامه . ففي وسع السفير ما دمنا نجهل عادات بلاده أن يرتدي ثياب نومه ! ويقابل بها الشاه إذا أراد. غير أنني فكرت ملياً في الأمر فتذكرت أن من بين الصور الموجودة في القصر ذي الأربعين عموداً في أصفهان توجد صور بعض الأوربيين الذين كانوا

يعدون على الشاه عباس الكبير وبينهم من أقام بالمدينة

وقد كرت أن بين الصور صورة ظهر فيها نفس الشاه عباس فلا شك أن الثياب التى تمثلها تلك الصورة والتى ارتداها الأربيون أمام الشاه عباس هى الثياب الواجب أن يرتديها كل أوربى أمام رأس متوج

فأسرعت بإخبار رئيسى بما رأيت . ونقل هو حديثى إلى الوزير الأكبر وهذا أمر بأخذ نموذج من تلك الصورة بواسطة أمهر صناع أصفهان فى أقرب وقت ممكن . وعند ما وصلت الصورة إلى طهران أرسلناها إلى السفير الإنكليزى وقلنا له : إن الشاه قبل أن يراه فى ثيابه التى اعتاد السفراء لبسها فى البلاط الفارسى ، وإن نموذجاً منها مرسل إليه ليرتدى هو ورجاله على مثاله وليقابلوا الشاه بهذا الزى . ولم يكد الأشقياء الملاعين أن يروا الرسم ويسمعوا خطابنا حتى علا ضحكهم وكثر صياحهم بشكل لا يمكن وصفه ، ثم قالوا لنا : « إننا لن نضع هذه الثياب على أجسامنا » . وأصروا على البقاء بزيهم المعتاد واضطرونا أخيراً إلى الإذعان لرغبتهم

ساد السكون والهدوء بين القوم الذين حضروا اجتماع السفير بالشاه بشكل لم يكن ينتظر من قوم جهلاء لم يتمدينوا ، وعجبنا ودهشنا من قوم هذه حالهم من الجهل بأحوال العالم ثم يستطيعون ضبط شعورهم والسيطرة على إرادتهم فى مثل هذا الاجتماع فلا يحدث فيه ما يعكر الصفو

وجلس الشاه على عرش من ذهب وعليه حلة مزركشة بالياقوت والأحجار الكريمة ذات البريق الذى يخطف الأبصار والوميض الذى يبهر الأنظار وجعلت رعيته تصيح : « من جمشيد ؟ من دارا ومن أنو شروان أمام شاهنا العظيم الجالس على العرش ؟ »

ووقف الأمراء على يمين العرش وعلى يساره فكانوا أبهى وأجمل من الأحجار التى تتألق على حلة أبيهم ، ووقف على مسافة من العرش وزراء الملكة الثلاثة ورجال الحكمة وأصحاب المشورة ، واصطف غلمان الشاه من كل أصبح الوجه أسود الطرف معتدل القد أمام الحائط يحملون تيجاناً فى أيديهم فكانوا كالملائك يحملون الأنجم الزاهرة ليرصعوا بها قبة السماء

وأخذ الفرنج مقاعدهم فى وسط الجمع وأحذيتهم فى أرجلهم وعليهم أرديتهم التى ترتفع إلى خصورهم وذقونهم حليقة فكانوا كالطير الذبيح المجرد من ريشه أو القردة المريضة التى تساقط شعرها أو أى شىء آخر خلا بنى آدم إذا وازنتهم بمن حولهم من السادة الأمجاد ، وقد تجلدوا وتماسكوا فلم يرهبهم هول الموقف ولم يزعجهم وجود الملك حتى خلنا أنهم مثلنا ثباتاً وجلداً فى هذه المواقف

تكلم السفير الانكليزى فمدد مناقب الذين يمثلهم ، تكلم على مثال لهجة قومه وعاداتهم فى الكلام فلم يجمل من لفظه ولم يحسن من قوله ، ولولا حذق المترجم وذكاؤه لما لقب الشاه فيما نقل إلينا من حديث السفير بملك الملوك وقبلة العالم

وإنى لأحاول مستحيلاً إذا حاولت أن أصف ما بين أخلاق القوم وأخلاقنا وعاداتهم وعاداتنا من الفوارق التى لا تحصى والمفارقات العديدة ، وحاول بعض فلاسفتنا أن يلموا بشىء منها أو يدركوا مبادى القوم فعزوها إلى أن مناخ بلادهم قاتم رطب وإلى

أن الشمس لا تظهر على ربوعها : « كيف يمكن أن يشبه قوم تحيط بهم المياه ولا يشعرون بحرارة الشمس قوماً لا يمر بهم يوم لا ينعمون فيه بأشعة الشمس ويكادون لا يعرفون ما هو البحر — غير أن العامة أرضاهم وأقنعهم قول بعضهم : « إن كفر القوم وجحودهم أنزلا عليهم اللعنة حتى فى دنياهم، ولو أسلم السفير وأتباعه وأمته أيضاً واعتنقوا الدين الصحيح لتغيروا جميعاً فى لمحة عين وأصبحوا مثلنا ولزال عنهم ما هم فيه من نجاسة وأقذار ولكان مآلهم الجنة فى الآخرة يوم يسكنها الله عباده الصالحين

الفصل الثامن والسبعون

حاجى بابا تلحظه عناية كبير الوزراء

كان ما تقدم مساعداً لى على التقدم معيناً على النجاح فقد عهد إلىّ بمعظم ما يتعلق بالأوربيين فى فارس من الأعمال نظراً لما ظن فىّ من العلم بأوربا والخبرة بشئونها وأدّى ذلك بى إلى أن أصير معروفاً عند كبير الوزراء وزملائه الوزراء وذوى النفوذ والقوة فى الدولة

ولم يكن ميرزا فيروز صاحب ثروة، وانقطع عنه ما كان يعطى له نظير قيامه بأمور الدولة بعد عودته إلى طهران فلم يستطع وهذا أمره أن يمدنى بما أحتاج إليه للعيش، وقد سرّه أن رآنى قادراً على كسب قوتى والعمل لنفسى فى الحياة . غير أنه لم يترك فرصة تمر إلا وامتدحنى فيها معدداً مناقبى وكفايتى ذاكراً جدى واجتهادى ، وقد برهنت على صدق ما قال عنى فلم أهمل ولم أتهاون حتى أكسب رضاء الكل وأن أحول نظرهم إلىّ مسلمين وغير مسلمين فهجرنى نحس الطالع وتركنى الشؤم

كان الوزير الأكبر هو الرجل الوحيد فى فارس الذى له تأثير على الشاه لما اتصف به من الحذق والمهارة وحضور الذهن وقد شغل منصب الوزارة على حكم الشاه لم تزعزعه التقلبات عامة كانت أو خاصة ولم تضعف نفوذه التغيرات فأصبح ألزم لفارس من أى رجل آخر

فرأيت أن أول ما يجب أن أحاوله هو كيف أنال رضاء الوزير الأكبر عنى وحمايته لى . وبدأت بالظهور أمامه يومياً، وإذ كانت مسائل الأوربيين قد شغلت كثيراً من اهتمامه فقد كان لا يرانى إلا سألنى عن شىء من شئونهم ، وأدى ذلك إلى أن الوزير الأكبر كان يعهد إلىّ برسائل إلى السفير الإنكليزى أعود إليه بالإجابة عليها مضيفاً من عندى مديحاً للوزير وإطراء وإعجاباً به وبقدرته العظيمة وتدخلت بين الأحزاب وغدوت محبوباً مقرباً من كبير الوزراء

وكان أحب ما تصبو إليه نفس الوزير أن تهدى له الهدايا، فجعلت هذا الأمر قبلتى فى علاقتى مع سفير الإنكليز وبذلت جهدى فى الحصول منه على شىء يقدم للوزير فيرضيه ويكون مساعداً لى على نيل الحظوة لديه، ولم يكن تبادل الهدايا إلا أمراً عادياً لا يجلب مظنة ولا يثير شبهة فألقيت كل اعتمادى فى خدمة نفسى على هذا الأمر . وكنت قد نجحت مرة أو مرتين فى المفاوضة لصالح أمتى ووطنى، فكان الوزير الأكبر ينظر إلىّ بإعجاب وسرور

وكان فى النية عقد محالفة مع الإنكليز وعين رئيس الوزارة مفوضاً من قبل الشاه فأخذت أحوم حول المفاوضات والمفوضين كسكلب يبحث عن قطعة عظم، رغم أنه لم يكن لى أى عمل فى المفاوضات، وكنت أشعر بين آونة وأخرى بأنى على باب النجاح

وأخيراً أرسل إلىّ كبير الوزراء يطلبنى فى صباح أحد الأيام بعد جلسة استمرت طول اليوم السابق فى المفاوضات . وأمرت أن أقابل الوزير فى حجرته الخاصة التى لا يدخلها أحد غير الأخصاء من أتباعه وجدته لا يزال فى فراشه ولم أجد معه أحداً آخر، وحين رآنى قال بصوت لطيف : «حاجى بابا ! اقترب منى واجلس بجانبى إذ لدىّ من المهام ما أريد أن أحدثك به »

عند ذلك شعرت برهبة وخجل غير أننى لم أستطع إلا الركوع بجانب الفراش إذ كان كلام الوزير بصوت منخفض جداً لا يكاد يصل إلىّ . لم يبدأ الوزير كلامه بمقدمة ولم يستهل أى استهلال بل قال إنه فى مركز حرج جداً إذ طلب السفير الإنكليزى مطالب لا يمكن قبولها ، وقال إنه سيغادر طهران إذا لم تقبل مطالبه

ثم قال الوزير: « وقد هددنى الشاه بقطع رأسى إذا سمحت للسفير بترك طهران ، ومن جهة أخرى فإننى والمفوض الآخر الذى يشاركنى مقتنعان تقريباً بأن الشاه لا يمكن أن يوافق على مطالب الإنكليز فما العمل ؟ »

فقلت بخضوع وكأنما كان لكلماتى معنى آخر غير ظاهرها : « ألا يمكن أن نرشوه ؟ » .

قال الوزير : « نرشوه ؟! من أين نأتى بالرشوة ؟ هذا إلى أن الإنكليز قوم أغبياء فلا يقبلون الرشوة . ولكن أصغ إلىّ . إننا لا نشاركهم فى هذه الغباوة . والسفير يريد أن ينال مطالبه بأى ثمن . وأنت بلاشك تعلم أننى ما تناولت أمراً إلا وأنجزته، فانطلق إلى السفير وكلمه بما لك من حق صداقته . قل له إننى مرسلك ، وإن فى استطاعتك أن تقول له ما لا يمكننى أن أقوله . هل فهمت ؟ »

فقبلت يده باحترام ورفعتها إلى رأسى قائلاً : « اطمئن ياسيدى وأقسم إننى إن شاء الله حامل إليك أحسن الأخبار ، ومبيض وجهى عندك »

وانصرفت من لدن الوزير وقصدت إلى دار السفير الإنكليزى ، وكلى آمال طيبة فى حسن المستقبل . ولست أريد أن أذكر ما قلت وفعلت لأقنع السفير بموافقة رئيس الوزارة على آرائه غير أننى نجحت نجاحاً باهراً ، وعدت أحمل فى يدى كيساً مملوءاً بالذهب .

دهش الوزير الأكبر عند ما رآنى ألقى بالكيس أمامه ، وجعل ينظر إلىّ ثم إلى الكيس مدة قبل أن ينطق بحرف ثم انطلق يمدحنى ويقرظ ذكائى ، وقال : «حاجى بابا ! إنك أصبحت لى وحدى ولست أتركك دون أن أكافئك فتمن علىّ ما شئت »

فجعلت أذكر له أننى خادمه الأمين وتابعه المخلص وأننى لم أفعل غير ما يحتمه علىّ واجبى وأنى لا أطلب غير سماحه لى بالوقوف أمامه . فظهرت بمظهر من الإخلاص للوزير والأمانة لا يمكن أن تتطرق إليه الريبة ، غير أنه فهم ما وراء هذه الكلمات وقال لى : « لا تسترسل فى كلامك على غير جدوى . لقد كنت أبحث عن رجل مثلك بحث اليائس حتى وجدتك ، وأنا أعرف قيمة الخدمة التى أديتها . تقدم يا بنىّ فى طريقك الذي بدأته تحت حمايتى ورعايتى، وعليك بالفرنج فاسلب منهم ما تشاء فإن الذهب مكدس فى خزائنهم ، وهم فوق ذلك محتاجون إلينا . وماذا أقول لك أيضاً ؟ إن أهل إيران كالأرض العطشى يفعل فيهم الذهب ما يفعله الماء فى الأرض . يتظاهر الفرنج بالشعور القومى والإحساس الوطنى ، وإنهم

إنما يخدمون مصالح بلادهم فى كل عمل أو قول أو حركة ، وهذا نعمرى ما لست أفقه له معنى . من يدريني بعد موتى أو موت الشاه أن إصلاحاتنا باقية وأعمالنا لا تذهب بها الأيدى العابثة ؟ إن للوطن ربا يحميه ويقيه كيد الكائدين ، فعبث ما يقول المكابدون إنهم يخدمون أوطانهم إذ ليس لفرد أن يفهم ما هى هذه الخدمة فكيف يقوم بها ؟ »

وكأنما أزالت كلمات السفير حجاباً كان فوق عينىّ ، وفتحت لى طريقاً جديدة للكسب ورنت فى أذنى كلمات الوزير : « إن الذهب مكدس فى خزائن الفرنج وهم محتاجون إلينا » وإلى هذه الغاية وجهت عنايتى ...

الفصل التاسع والسبعون

لا قيت صعوبة كبيرة وبذلت مجهوداً عظيماً إلى أن توصلت إلى الإعلان عن نفسى فى المدينة أننى صاحب الوزير الأكبر المقرّب إليه ونشرت بين الفرنج أن أمراً واحداً لا يمكن إنجازه من غير وساطتى ، وسرعان ما أنتجت هذه الشهرة نتاجها وأثمرت ثمرها . وأخذت تكثر لدى الطلبات بما يتبعها من الأجر والمنفعة . وكان أظهر ما فى طباع ضيوفنا الإنكليز ميلهم الشديد إلى منفعتنا رغم إرادتنا غير مبالين بما يصرفونه فى هذا السبيل ورغم ما نقوله نحن عنهم

وكانوا يشعرون نحونا بما لم نشعر به نحو أنفسنا من الود والمنفعة . ولم نستطع رغم ما بذلناه من بحث وتفكير أن نستكشف السر الذى حدا بهؤلاء القوم إلى السعى فى مصلحتنا ذلك السعى الشديد — نحن الذين لم ننقطع قط عن رميهم بالكفر والإلحاد ودنس الأجسام وخبث الأرواح وبأن مصيرهم جهنم وبئس المصير .

وليس من شأنى أن أبحث فى طبائع هؤلاء الناس ولا فى أذواقهم بل كان بحثى منصرفاً إلى كيفية الحصول منهم على المال . وقد أنتج عملى وأثمر وعاد علىّ بالمال الوفير فلم يذهب تعبى سدى

ويذكر القراء عموماً أننى تحدثت فى جزء سالف من هذا الكتاب عن طبيب أجنبى كان يحاول أن يوجد فى فارس طريقة لعلاج الجدرى بالتطعيم

لم تنجح طريقته نجاحاً كبيراً وظللنا نعالج أطفالنا المرضى كما كان آباؤنا يعالجوننا . ولكن الطبيب كان يظهر شغفاً شديداً بتحقيق فكرته ونشر طريقته . وكان يخاطب بنفسه كل سيدة يتمكن من رؤيتها فى وجوب التطعيم بفصل الجدرى حرصاً على حياة أبنائها . وقد رأيت أن فى تقربه من النساء بهذه الوسيلة خطراً عظيماً على الآداب مهما كان السبب الذى يتذرع به فأقنعت رئيس الوزارة بأن يجعل جنديا على باب هذا الطبيب ليمنع كل امرأة من دخوله وكان هذا العمل قاضياً على كل أمل للطبيب فأدخل اليأس على نفسه

فذهبت إلى هذا الطبيب الأحمق وقلت له : ما الذى يدعوك إلى الحزن مع أنك لم تستفد مالاً فى مقابل تعبك ؟ »

فقال لى — وكان قد تعلم لغتنا — ويلك إنك لا تعرف معنى لما تقول . إن طريقة التطعيم يجب أن تعم فى جميع البلاد لإنقاذ الأطفال من الموت »

فقلت : « وما الفائدة من ذلك ؟ إذا لا يموتون وهم أطفال وأى نفع جنيناه من حياتهم ؟ »

قال : « إذا كنت تريد النفع والفائدة فإنى أدفع

لك المبلغ الذى تطلبه وتتركنى أعود إلى نشر العمل الذى لم تكن ترى فيه فائدة قبل الآن »

هنا بدأت مفاوضتى معه وأظهرت له مقدار المخاطرة التى أتحملها بالتكلم فى شأنه مع رئيس الوزارة ثم اتفقت معه فى النهاية على المبلغ وبعد أيام عاد الزحام على بابه ولم يقل أحد أى شىء عن مخالفة الآداب بمقابلة الطبيب للنساء

ومن حماقات هذا الطبيب أنه طلب تشريح الجثث الآدمية فقلت له : « هل تدعى فى هذا الموضوع أيضاً أن العالم سيستفيد من تقطيعك أجساد المسلمين ؟ »

فقال : « يستحيل أن تقدر الفوائد التى تعود على الإنسانية من علم التشريح ويستوى عندى تشريح المسلمين والنصارى واليهود »

ثم عرض علىّ مبلغاً كبيراً لأسمح له بذلك فهدت له الطريق وصرت أشفى غيظى من الكفار بتقديم جثثهم إلى الطبيب لتشريحها وفى الوقت نفسه أجمع ثروة طائلة من هذا الطريق

ولقد كان السفير نفسه يزعم أنه يريد الإصلاح لبلادنا وأنه سيخدم الإنسانية بتنفيذ مشروعاته فى هذه البلاد ، وكانت لهجته كلهجة الطبيب وقد طلب إلىّ أن أساعده على عمل آخر عند رئيس الوزارة ووعدنا بهدية كبيرة جداً ، ولما كان من عادات رئيس الوزارة أن يظل أنفه عالياً ما دام فى الجو هدية فقد استمر يسألنى كل يوم عن هذه الهدية بعد أن قصصت عليه الحديث الذى دار بينى وبين السفير

وقد علم أن السفير أحضر من بلاد الإنكليز مقداراً عظيما من المنسوجات الغالية وكان الوزير شديد الشغف بالثياب الفاخرة

لكن الهدية التى أرسلها السفير من تلقاء نفسه كانت من الأطعمة التى تزرع فى بلاده ولا يوجد مثلها فى فارس ، وقد قال إنه يريد مساعدته على تعريف الناس بها لتكون أساس تجارة واسعة بين البلدين فامتعض رئيس الوزارة وكلفنى أن أذهب إلى السفير وأخبره بأن الأرض الفارسية ممتلئة بالخيرات وأنه لا يقبل مثل هذه الهدية بل يريد هدية من القماش الثمين الذى لديه

ولما أبلغت هذا القول إلى دار السفارة ضحك الشبان الذين فيها والذين ليس لهم لحى ولا شوارب وقالوا : « هل يريد رئيس الوزارة أن يحيل أغذية يستفيد بها الشعب إلى كساء يضعه على ظهره ؟ »

وضحكوا ضحكات عالية منى ومن الذى أرسلنى ولكن السفير نفسه كان أعقل كثيراً من هؤلاء الشبان فقابلنى بمنتهى الأدب وأمر بتسليمى ما طلبته من الثياب ، وفى الوقت ذاته أبى أن يسترد البطاطس الذى أرسله وطلب توزيعه على الشعب قائلاً إن هديته إلى الوزير علامة على الصداقة وهديته إلى الشعب برهان على الاحترام والتقدير

ولما عدت فى ذلك اليوم إلى رئيس الوزارة أطرانى وامتدحنى وقال إن منزلتى عنده أكبر منزلة وإننى سأظل أقرب أخصائه ما بقى على قيد الحياة

الفصل الثمانون

الخاتمة

كادت تنتهى المفاوضات التى بيننا وبين الكفار على أن يرسل الشاه سفيراً من قبله إلى بلاد الإنكليز لتقوية الروابط بيننا وبينهم . وكان كل يوم يمر يزيد فى إقناعى بكبر المنزلة التى نلتها عند رئيس الوزارة وكانت حاجته إلى مساعدتى تزداد ظهوراً بمرور الأيام

وفى اليوم التالى لتوقيع المعاهدة مع انكلترا استدعانى إلى غرفته الخاصة وقال لى : « أصغ إلىّ يا حاجى بابا فإن لدىّ حديثاً هاماً أريد أن أحدثك به ولما كنت واثقاً منك فإنى مقدر ما ستبديه من الاهتمام »

فأظهرت له أننى عند ظنه وأكدت له ولائى وطاعتى فقال : « سواء أكانت المعاهدة بيننا وبين الإنكليز حسنة أو سيئة فإنها قد تمت وقد قرر الشاه أن يرسل من يمثله فى لوندرا . وأنت تعرف الفارسيين كما أعرفهم وتعرف أنهم لا يحبون مغادرة بلادهم وسنجد صعوبة كبيرة فى اختيار من يصلح لهذه السفارة ممن يقبلون السفر إلى بلاد الإنكليز . وإنى واضع نصب عينى اسم رجل خاص أريد أن يفارق البلاد الفارسية بأسرع ما يمكن وأريد أن تبذل كل ما فى وسعك لإقناعه بقبول هذا المنصب »

فهمت لأول وهلة أنه يريد إرسالى وتقليدى هذا المنصب ، ولكننى لم أفهم لماذا يريد إخراجى من فارس. وعلى كل حال فإني لم أشأ أن تفوتنى هذه الفرصة فأظهرت أننى فهمت وأننى شاكر ودعوت له ودنوت منه وقبلت يده وقلت له : « إننى عبدك الخاضع وسأبرهن فى كل موقف على خضوعى لك وولائى . مرنى وستجدنى مطيعاً ولو أدى ذلك إلى موتى »

قال : « هذا كلام حسن يا حاجى بابا والرجل الذى أعنيه هو ميرزا فيروز »

فظهر التجهم على وجهى وبدت علىّ علائم اليأس واستمر رئيس الوزارة يقول : « لقد وجدت نفوذه لدى الشاه آخذاً فى الازدياد ، وهو رجل قادر على الكلام والإقناع ، وهو داهية فى الرياء قادر على الكذب والاختلاق . وقد أظهر الشاه من السرور به أكثر مما أظهر من السرور بأى إنسان . وقد سمعت أنه يضمر لى عداء شديداً وإن كان يتظاهر بأنه خادم مطيع ولم يجرؤ إلى الآن على إعلان عداوته لأى إنسان أو على الدس ضد أى أحد . ولكننى لا أزال خائفاً منه حتى يرحل عنا، فمتى بعد عن وجه الشاه بالسفر إلى بلاد الكفار استرحت من أكبر مسبب لمتاعبى وسأدبر فى غيابه الخطط حتى إذا ما عاد ظافراً من مهمته (وأسأل الله ألاّ يعود) لم يجد مثل ما له الآن من النفوذ »

وافقت رئيس الوزارة دون تردد وإن كان ضميرى غير مستريح إلى أى عمل أقوم به ضد هذا السفير الذى كان أصل نعمتى

وقال لى الوزير : « إننى لم أطلعك إلا على جزء من مشروعى فإننى أريد غير ما أخبرتك به — أن تذهب أنت أيضاً مع السفير بوظيفة السكرتير الأول وأنت جدير بهذا المنصب لما لك من الإخلاص والمعرفة التامة بما أريده ، والخبرة بمختلف الشئون » ولقد سرنى تقلدى هذا المنصب ، ولكن لعرضه فى وقت واحد مع منصب أكبر منه ، واختيارى لأصغرهما امتعضت ، وكنت من جهة أخرى أفضل البقاء فى إيران ما دمت لن أنال منصب السفير فإن مجال الكسب والعمل فيها أكبر من مجالهما فى المنصب الذى اختاره لى . وكنت لا أزال أذكر ألم الغربة ، وأخشى أهوال البحر فى رحلة طويلة إلى بلاد الإنكليز التى سمعت عن ظلامها وبردها ما يقضى فيها وعلمت من جمود أهلها وثقلهم ما جعلنى أتصور الإقامة بينهم فوق الطاقة . وعلى أية حال فقد أجبت

بكلمة القبول التي تجدها حاضرة على لسان كل فارسي مهما كان شعوره الحقيق ، وقلت له إنني قابل أمره على العين والرأس ، وإنني سأظل خادمه . ثم سكت سكوت الحجر الأصم ففهم الوزير سريعاً ما عنيته وقال لي : « إذا لم تكن تحب ما عرضته عليك فعندي مناصب أخرى ليس بالصعب تعيينك في أحدها ، ولكنني آثرت صالحك ولا يزال موعد السفر بعيداً فاذهب الآن إلى أصفهان مندوباً من قبل الشاه واجمع من أهلها ما تستطيع جمعه من الهدايا لتقدم باسم إيران إلى البلاط الإنكليزي . ولك من هذا العمل مورد كبير للكسب »

لم أدع الوزير يتم قوله فقد كان اقتراحه بأن أعود إلى مدينتي في مثل هذه المهمة معزياً لي وقلت بلهجة من استخفه الطرب : « أقسم بالخبز والملح الذي أكلته عندك وأقسم بحياتك وبرأس الشاه إنني مستعد لتلبية ما تأمر به وسأذهب إلى أي مكان تأمرني بالذهاب إليه ولو أمرتني بالذهاب تحت أطباق الأرض لأتى بشيطان من الشياطين »

وقال الوزير : « حسن ما تقول فاذهب أولاً إلى فيروز خان وأخبره إنه هو الرجل الوحيد الذي يصلح من بين الفارسيين لمنصب السفارة وأقنعه بالفوائد العظيمة التي تعود عليه من قبول هذا المنصب . وقل له إن رجلاً آخر يزاحمه عليه وأنه أعقل من أن يضيع هذه الفرصة فيغنمها منافسه . ومتى قلت له ذلك سهل إقناعه »

تركت رئيس الوزارة وأنا لا أعلم هل أنا صاعد إلى السماء أم هابط إلى الأرض وهل تحققت كل أطماعي أم سأعود إلى حياتي الماضية المملوءة بالأخطار والمخاطرات ؟ وهل سأقطع ألسنة الذين كانوا يشتمون بي ويعيرونني بأني ابن حلاق أم سأزيدهم شماتة بي ؟

وأخذ فكري يحوم حول هذه الخواطر ومشيت في الطريق منتفخاً بحالة تستلفت الأنظار . وكنت أحلم بمسيري على جوادمطهم في أصفهان وتحتي سرج موشى بالذهب وفي يدي لجام مذهب وحولي الجنود يحرسونني . وصلت إلى بيت ميرزا فيروز فوجدته مستعداً للكلام معي في شأن السفارة وظهر لي أن السفير الإنكليزي كلمه في نفس الموضوع الذي كلفني رئيس الوزارة بالكلام معه فيه ، وقد سهل عليّ موقفي الذي كنت أستصعبه أن ميرزا فيروز أظهر سروراً شديداً واغتباطاً بمنصب السفير في لوندرة ، وقد سألني هل أريد بعد أن استعدت مكانتي أن أعود إلى زوجتي شكرليب ، فتحرجت من الجواب على هذا السؤال لأني كنت أكره الذكرى السيئة .

وفي اليوم التالي أعلن الشاه أنه اختار ميرزا فيروز ليكون سفيراً في انكلترا . وصدر أمر رئيس الوزارة بأن أذهب إلى أصفهان لجمع الهدايا من هناك

ولست أريد أن أجهد القارئ بذكر التفاصيل عن هذه المهمة ويكفي أن أقول إنني سافرت إلى أصفهان كما يسافر إليها رجل كبير الأهمية وإنني كنت مفعم النفس بشعور من العظمة والجلال لا يمكن أن يدركه إلا أمثالي من الإيرانيين ، وقد ظهر لي أن سوء الحظ فارقني فصرت في مأمن منه ودلتني كل الظواهر على أن صفحة جديدة من حياتي قد فتحت ليكتب فيها القدر سطور السعد .

ودخل حاجي بابا مدينته باسم ميرزا حاجي بابا نائب الشاه ، وهل أريد بعد ذلك أن أقول شيئاً ؟

وهنا يقول واضع القصة باللغة الانكليزية إنه قد سمع نصيحة الدرويش الفارسي فلا يعود إلى سرد القصص إلا إذا أعجب بها السامعون، فإن شجعه القراء وضع قصة أخرى يسرد فيها حوادثه بعد ذهابه إلى انكلترا وما حدث بعد عودته من انكلترا إلى إيران بعد أن عرف عن الغرب وشئونه ما ليس يعرفه الإيرانيون . وواضع هذه القصة فى انتظار تشجيع القراء يستأذنهم فى إتمام قصته

ويقول مترجم القصة إلى اللغة العربية إن واضع القصة باللغة الإنكليزية قد وفى بوعده فوضع كتاباً آخر عنوانه حاجى بابا فى انكلترا وقد ترجمناه ونشرناه فى مجلة الرواية فى العام الماضى . وقد أعجبنا أيما إعجاب بطريقة المؤلف فى استعراض مظاهر الحياة فى إيران فحاكيناه فى طريقته ووضعنا على غرار كتابه كتاباً نستعرض فيه الحياة المصرية المصرية وعلاقتها بالشرق وبالغرب وجعلنا بطل القصة « الدكتور مبارك السنتريسى الملقب بحاجى بابا بولاق وأخباره فى مصر وفرنسا والعراق »

وسنوافى به القراء بعد حين

عبد اللطيف النشار

شركة مصر للملاحة البحرية

شركة مساهمة مصرية

خط رقاب قاصد وسريع بين الاسكندرية — جنوى — مرسيليا وبالعكس

أسعار الصيف ابتداء من ١٥ مايو إلى ٣١ أكتوبر سواء للسفر من مصر أو من أوربا
(من الأسكندرية إلى جنوى أو مرسيليا أو بالعكس)

	الباخرة النيل	الباخرة كوثر
	جك	جك
درجة أولى	١٧	١٦
درجة ثانية	١٢	—
درجة ثانية : مخفضة (سياحة)	—	١٠
« ثالثة : (خصوصية)	٩	—
درجة رابعة	—	٥
كويرته	—	٣

ويمنح للذين يستخرجون تذاكر الذهاب والاياب معا خصم ٢٠٪ على قيمة تذكرة الاياب .
والأجور المبينة أعلاه بالعملة الانجليزية تحصل بواقع ٢/١ ٩٧ قرشا للجنيه الانجليزي .

مواعيد السفر من الاسكندرية

الباخرة النيل	١٨	مايو	الباخرة النيل	٢٩	يونيو
« «	١	يونيو	« كوثر	٦	يوليه
« كوثر	٨	«	« النيل	١٣	«
« النيل	١٥	يونيو	« كوثر	٢٠	«
« كوثر	٢٢	يونيو	« النيل	٢٧	«

طبعت بمطبعة الرسالة بشارع الجبروتى — عابدين